من أخبار المسافرين (١٠)

المجرمون يعترضون طريق زينب

هذه قصة عظيمة حقّاً، قصة مؤثرة مبكية محزنة تروي طرفاً من الإيذاء الذي تعرض له رسول الله ﷺ وتعرض له أهل بيته، وتحكي جزءاً يسيراً من العناء المرير والعذاب الذي لحق به وبأصحابه وأتباعه، ثم هي تحكي عداء المشركين، وغلظة الكافرين، وهمجية المجرمين، وفي المقابل تتجلَّى من خلالها الأخلاق النبوية العظيمة ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

إنها قصة زينب بنت رسول الله ﷺ، تلك المرأة التي كانت وفيةً لزوجها إلى آخر لحظة حتى منَّ الله عليها بإسلامه ونجاته من ركب الكافرين.

لما صارت قريش إلى بدر سار معهم أبوالعاص بن الربيع ـ زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ـ فأصيب في الأسارى يوم بدر، فكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ.

ولما بعث أهلُ مكة فداء أُسَرَائهم، بعثتْ زينبُ بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الرَّبيع بمالٍ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدْخلتها بها على أبي العاص حين بَنى عليها؛ قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقَّةً شديدةً وقال: إن رأيتم أن تُطْلِقُوا لها أسيرَها، وتردّوا عليها مالها، فافعلوا؛ فقالوا: نعم يارسول الله، فأطلقوه، وردّوا عليها الذي لها.

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه أن يخلِّي سبيل زينب إليه. ولما خرج أبوالعاص إلى مكة وخُلِّيَ سبيلُه، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً

من الأنصار مكانَه، فقال: كُونا ببطْن يأجَج ـ موضع على ثمانية أميال من مكة ـ حتى تمرّ بكما زينب، فتَصْحباها حتى تأتياني بها. فخرجا مكانهما، وذلك بعد بَدْر بشهر أو قريب منه. فلمَّا قَدِم أبوالعاص مكة أمرها باللُّحوق بأبيها، فخرجت تجهَّز.

فلما فرغت بنت رسول الله ﷺ من جهازها قَدَّم لها حَمُوها كنانة بن الربيع أخو زوْجها بعيراً، فركبته، وأخذ قوسه، وكنانته، ثم خرج بها نهاراً يقود بها، وهي في هَوْدج لها. وتحدث بذلك رجالٌ من قريش، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طُوى، فكان أول من سبق إليها هَبَّار بن الأسود بن المُطَّلب بن أسد بن عبدالعُزّى، والفِهْرِيّ؛ فروَّعها هبَّار بالرمح وهي في هَوْدجها، وكانت المرأة حاملاً، فلما رِيعتْ طَرحتْ ما في بطنها ـ وذكر عن غير ابن إسحق أن هباراً نخس بها الراحلة فسقطت على صخرة وهي حامل، فهلك جنينها، ولم تزل تهريق الدماء، قد ظلت متأثرة بذلك حتى ماتت بالمدينة بعد إسلام بعلها أبي العباس ـ وبرك حموها كنانةُ، ونثر كنانته، ثم قال: والله لا يدنو مني رجلٌ إلاَّ وضعتُ فيه سهماً، فتَكَرْكر الناس عنه. وأتى أبوسفيان في جلَّة من قُريش فقال: أيها الرجل، كفّ عنَّا نَبْلك حتى نكلِّمك، فكَفّ؛ فأقبل أبوسفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تُصِبْ، خرجتَ بالمرأة على رؤوس الناس علانيةً، وقد عرفت مُصيبتنا ونَكْبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظنّ الناسُ إذا خرجتَ بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهُرنا، أن ذلك عن ذل أصابنا عن مُصيبتنا التي كانت، وأن ذلك منا ضعْف ووَهن، ولعمري ما لنا بحَبْسها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك من ثُوْرة، ولكن ارجع

بالمرأة، حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدّث الناس أن قد ردَدْناها، فسُلَّها سراً، وألْحقها بأبيها؛ قال: ففعل. فأقامت ليالِيَ، حتى إذا هدأت الأصواتُ خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله ﷺ.

وقال كنانة بن الربيع في أمر زينب، حين دفعها إلى الرَّجُلين:

عجبْتُ لهبَّار وأوْباش قَوْمه يُريدون إخفاري ببنت مُحَمَّدِ
ولستُ أبالي ما حَيِيتُ عَدِيدَهم وما استجمعتْ قَبْضاً يَدِي بالمُهَنَّد

وأقام أبوالعاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ بالمدينة، حين فرّق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قبيل الفتح، خرج أبوالعاص تاجراً إلى الشأم، وكان رجلاً مأموناً، بمال له وأموال لرجال من قريش، أبْضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأقْبل قافلاً، لقيَته سريَّة لرسول الله ﷺ، فأصَابُوا ما معه، وأعجزهم هارباً، فلما قدمت السَّريَّة بما أصابوا من ماله، أقبل أبوالعاص تحت الليل حتى دخَل على زينب بنت رسول الله ﷺ، فاستجار بها، فأجارته، وجاء في طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصُّبح فكبَّر وكبَّر الناس معه، صرختْ زينب من صُفَّة النساء: أيها الناس، إني قد أجرتُ أباالعاص بن الرَّبيع، قال: فلما سلَّم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس، فقال: أيها الناس، هل سمعتم ما سمعتُ؟ قالوا: نعم؛ قال: أما والذي نفس محمد بيده ما علمتُ بشيء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم، إنه يُجير على المُسلمين أدْناهم. ثم انصرف رسو الله ﷺ، فدخل على ابنته، فقال: أي بُنيَّة، أكْرمي مثواه، ولا يخْلُصنّ إليك، فإنك لا تَحلين له.

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى السَّريَّة الذين أصابوا مال أبي العاص، فقال لهم: إن هذا الرجل منَّا حيثُ قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تُحْسِنوا وتردّوا عليه الذي له، فإنَّا نحبّ ذلك، وإن أبيتم فهو فيْء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحقّ به؛ فقالوا: يارسول الله، بل نردّه عليه، فردّوه عليه، حتى إن الرجل ليأتي بالدّلْو، ويأتي الرجل بالشَّنَّة وبالإداوة، حتى إن أحدهم ليأتي بالشِّظاظ، حتى ردوا عليه مالَه بأسْره، لا يفقد منه شيئاً، ثم احتمل إلى مكة، فأدّى إلى كلّ ذي مال من قُريش ماله، ومن كان أبْضع معه، ثم قال: يامعشر قريش، هل بَقي لأحدٍ منكم عندي مال لم يأخذه؛ قالوا: لا. فجزاك الله خيراً، فقد وجَدْناك وفيًّا كريماً. قال: فأنا أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلاَّ تخوّف أن تظنُّوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أدّاها الله إليكم وفرغتُ منها أسْلمتُ. ثم خرج حتى قَدِم على رسول الله ﷺ وأصبح من المسلمين ورد عليه رسول الله ﷺ زوجته زينب. صلى الله على محمد ورضي عن أبي العاص وزوجه وجميع الصحابة والتابعين.

المسافر والبحر

قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة]

وجاء أحد المسافرين الذين يكثرون ركوب البحر جاء إلى النبي ﷺ يسأله عن مسألة تتعلق بالبحر فقال: إنا قوم نركب البحر وليس معنا إلاَّ القليل من الماء، فإذا توضأنا به عطشنا، فهل نتوضأ بماء البحر فأجابه ﷺ بجواب من جوامع كلمه ومن الكلام الموجز المعجز، فأجابه عما سئل وزاده فائدة أخرى حيث قال له: «**هو الطهور ماؤه الحلُّ ميتته**».

البحر مخلوق من مخلوقات الله تعالى وآية من آياته ونعمةٌ من نعمه على عباده ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى: ٣٢]

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤]

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠]

البحر آية من آيات الديان، ومكمن اللؤلؤ والمرجان، ونعمة من الله للإنسان ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

البحر رمز البذل والعطاء، ومَثَلُ التدفُّق والنماء، وعنوان العبقرية والعمق والذكاء. إذا أُريد وصف إنسان بأنه معطاء لم يكن هنالك أعظم من تشبيهه بالبحر.

هو البحر من أي النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

وإذا أريد وصف إنسان بأنه بلغ في العلم والموسوعية أبعد ما يمكن وصف بأنه كالبحر فيقال هو بحر العلوم.

كالبحر في علمه السامي وذو خلقٍ كالمسك كالعنبر الفوّاح كالزهرِ

وإذا أريد وصف شاعر بالتدفق والسلاسة قيل: «يغرف من بحر».

البحر مخلوق عجيب وعالم غريب، ومركب رهيب مهيب، ولذلك فإن الإنسان إذا ركب البحر زاد خوفه، وارتجف فؤاده، وخفق قلبه، لاسيما إذا طغى الموج وعصفت الريح فإنه يصبح في حالة من الذعر والخوف وهنا ينقطع أمله من كل أحد ويلجأ إلى الله تعالى ويدعوه ويرجوه ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنعام: ٦٣]

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]

البحر من آيات الله الباهرة، ودلائل العظمة الساطعة، والذي نفسي بيده إن الإنسان المسلم إذا قعد على شاطىء البحر، وخاصة عند الغروب، ثم أعمل ذهنه ونظر بعين العبرة إنه يحصل على موعظة بالغة تزيد إيمانه، وتحرك وجدانه، وتنفي عن القلب أدرانه.

ومن عجائب البحار أن البحر المالح يلتقي بالبحر العذب ومع ذلك لا

يختلط هذا بهذا ولا يبغي هذا على هذا فسبحان الخلاَّق العظيم القائل في قرآنه الكريم ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ [الرحمن: ١٩ـ٢١]

إن بيننا نحن المسلمين ـ أعني بذلك المسلمين منذ آدم عليه السلام ـ وبين البحر صداقة وثيقة، ومحبة عريقة، ومودة عميقة، إن الصلة بيننا وبين البحر قديمة قدم التاريخ، عميقة عمق البحر، المسلم إذا رأى البحر انقدحت في ذهنه ذكريات خالدة، ومواقف رائدة، ودلائل عظمة شاهدة، وأعظم تلك المواقف وأجل تلك الذكريات هو ما كان مع موسى عليه السلام، فالبحر قام بدورٍ رائد، وفعل ماجد في نصرة موسى عليه السلام منذ أن كان طفلاً صغيراً إلى أن أظهره الله على فرعون وجنوده. فالبحر هو الذي حمل موسى وهو طفل رضيع وصانه إلى أن أسلمه إلى بيت الطاغية فرعون ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧]

والبحر هو الذي استجاب لعصا موسى فانفلق ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣] فنجى موسى ثم انقض البحر على عدو الله فكان من المغرقين ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٦٥ـ٦٦] ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس]

ولموسى مع البحر قصة أخرى وهي التي ذكرها الله تعالى في رحلة موسى إلى الخضر وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى

نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾

[الكهف: ٦٣]

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف: ٧٩]

وهنا نبيٌّ آخر له مع البحر قصة عجيبة، وواقعة لطيفة وهو نبي الله يونس عليه السلام «ذو النون» الذي التقمه الحوت ثم نجّاه الله واستجاب لدعائه، وسوف ترد معنا هذه القصة بشيء من التفصيل فيما بعد إن شاء الله تعالى.

والسلف رضوان الله عليهم لهم قصص مع البحر عجيبة فقد ثبت عن كثير منهم ـ في جهادهم ـ أنهم كانوا يعبرون بخيولهم البحر وكأنما يمشون على اليابسة.

والكلام عن البحر يشمل النهر أيضاً، وإليك هذه القصة العجيبة فوالله إنها قصة تحمل في طياتها العجب العجاب، ما أروعها ما أعجبها ولولا أنها أمور قد سجّلها التاريخ، وحوادث قد صدقها الدهر لقال الإنسان إنها ضربٌ من الخيال، ونسجٌ من الأوهام، ولكنها حدثت بالفعل، وما ذلك على الله بعزيز.

يقول ابن كثير في «البداية والنهاية» في قصة فتح المدائن بقيادة سعد ابن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: وأُخبر سعدٌ بأن كسرى يزدجرد عازم على أخذ الأموال والأمتعة من المدائن إلى حلوان، وأنك إن لم تدركه قبل ثلاث فات عليك وتفارط الأمر. فخطب سعد المسلمين على شاطئ دجلة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا

البحر فلا تخلصون إليهم معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم. فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل. فعند ذلك ندب سعد الناس إلى العبور ويقول: من يبدأ فيحمي لنا الفراض ـ يعني ثغرة المخاضة من الناحية الأخرى ـ ليجوز الناس إليهم آمنين، فانتدب عاصم ابن عمرو وذوي البأس من الناس قريب من ستمائة، فأمّر سعد عليهم عاصم بن عمرو ووقفوا على حافة دجلة فقال عاصم: من ينتدب معي لنكون قبل الناس دخولاً في هذا البحر فنحمي الفراض من الجانب الآخر؟ فانتدب له ستون من الشجعان المذكورين ـ والأعاجم وقوف صفوفاً من الجانب الآخر ـ فتقدم رجل من المسلمين وقد أحجم الناس عن الخوض في دجلة، . فقال: أتخافون من هذه النطفة؟ ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ ثم أقحم فرسه فيها واقتحم الناس، وقد افترق الستون فرقتين أصحاب الخيول الذكور، وأصحاب الخيول الإناث. فلما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا: ديوانا ديوانا. يعني: مجانين مجانين. ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنساً بل تقاتلون جنًّا. ثم أرسلوا فرساناً منهم في الماء يلتقون أول المسلمين ليمنعوهم من الخروج من الماء، فأمر عاصم بن عمرو أصحابه أن يشرعوا لهم الرماح ويتوخوا الأعين، ففعلوا ذلك بالفرس فقلعوا عيون خيولهم، فرجعوا أمام المسلمين لا يملكون كف خيولهم حتى خرجوا من الماء، واتبعهم عاصم وأصحابه فساقوا وراءهم حتى طردوهم عن الجانب

الآخر، ووقفوا على حافة دجلة من الجانب الآخر ونزل بقية أصحاب عاصم من الستمائة في دجلة فخاضوها حتى وصلوا إلى أصحابهم من الجانب الآخر فقاتلوا مع أصحابهم حتى نفوا الفرس عن ذلك الجانب وكانوا يسمون الكتيبة الأولى كتيبة الأهوال، وأميرها عاصم بن عمرو، والكتيبة الثانية الكتيبة الخرساء وأميرها القعقاع بن عمرو. وهذا كله وسعد والمسلمون ينظرون إلى ما يصنع هؤلاء الفرسان بالفرس، وسعد واقف على شاطىء دجلة. ثم نزل سعد ببقية الجيش، وذلك حين نظروا إلى الجانب الآخر قد تحصن بمن حصل فيه من الفرسان المسلمين، وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم. ثم اقتحم بفرسه دجلة فاقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملؤوا ما بين الجانبين، فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن، والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده، ولأن أميرهم سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وقد توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، ودعا له. فقال: «**اللهم أجب دعوته، وسدد رميته**» [أخرجه الحاكم: ٣/ ٥٠٠ وصححه، ووافقه الذهبي]، والمقطوع به أن سعداً دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر، وقد رمى بهم في هذا اليم فسددهم الله وسلمهم، فلم يفقد من المسلمين رجل واحد غير أن رجلاً واحداً يقال له غرقدة البارقي، زلَّ عن فرس له شقاء، فأخذ القعقاع ابن عمرو بلجامها، وأخذ

بيد الرجل حتى عدله على فرسه، وكان من الشجعان، فقال: عجز النساء أن يلدن مثل القعقاع بن عمرو. ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له مالك بن عامر، كانت علاقته رثة فأخذه الموج، فدعا صاحبه الله عز وجل، وقال: اللهم لا تجعلني من بينهم يذهب متاعي. فرده الموج إلى الجانب الذي يقصدونه فأخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه. وكان الفرس إذا أعيا وهو في الماء يقيض الله له مثل النشز ـ المكان المرتفع ـ فيقف عليه فيستريح، وحتى إن بعض الخيل ليسير وما يصل الماء إلى حزامها، وكان يوماً عظيماً وأمراً هائلاً، وخطباً جليلاً، وخارقاً باهراً، ومعجزة لرسول الله ﷺ، خلقها الله لأصحابه لم ير مثلها في تلك البلاد، ولا في بقعة من البقاع، سوى قضية العلاء بن الحضرمي، بل هذا أجل وأعظم، فإن هذا الجيش كان أضعاف ذلك. قالوا: وكان الذي يساير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي، فجعل سعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل. والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه، وليهزمن الله عدوه، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات. فقال له سلمان: إن الإسلام جديد. ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً. فخرجوا منه كما قال سلمان لم يغرق منهم أحد، ولم يفقدوا شيئاً.

ولما استقل المسلمون على وجه الأرض خرجت الخيول تنفض أعرافها صاهلة، فساقوا وراء الأعاجم حتى دخلوا المدائن، فلم يجدوا بها أحداً، بل قد أخذ كسرى أهله وما قدروا عليه من الأموال والأمتعة

والحواصل وتركوا ما عجزوا عنه من الأنعام والثياب والمتاع، والآنية والألطاف والأدهان ما لا يدرى قيمته. وكان في خزانة كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف ألف دينار ثلاث مرات فأخذوا من ذلك ما قدرا عليه، وتركوا ما عجزوا عنه وهو مقدار النصف من ذلك أو ما يقاربه. فكان أول من دخل المدائن كتيبة الأهوال ثم الكتيبة الخرساء، فأخذوا في سككها لا يلقون أحداً ولا يخشونه غير القصر الأبيض ففيه مقاتلة وهو محصَّن.

فلما جاء سعد بالجيش دعا أهل القصر الأبيض ثلاثة أيام على لسان سلمان الفارسي، فلما كان اليوم الثالث نزلوا منه وسكنه سعد واتخذ الإيوان مصلى، وحين دخله تلا قوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ثم تقدَّم إلى صدره فصلى ثمان ركعات صلاة الفتح. فسبحان الله العظيم ورضي الله عنهم أجمعين.

وإليك هذه الأعجوبة الأخرى التي حدثت على زمن عمر بن الخطاب، قصة من قصص التعامل مع البحر على أنه مخلوق من مخلوقات الله تعالى.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: روينا من طريق ابن لهيعة عن قيس بن الحجاج عمن حدثه قال: لما افتتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص حين دخل بؤنة ـ من أسماء أشْهُر العجم ـ فقالوا: أيها الأمير، لِنِيْلِنَا هذا سنة لا يجري إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت اثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا

النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا مما لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما قبله. قال: فأقاموا ثلاثة أشهر والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً، حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي، فألقها في النيل. فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها «من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر. أما بعد، فإن كنت إنما تجري من قبلك ومن أمرك فلا تجر فلا حاجة لنا فيك، وإن كنت إنما تجري بأمر الله الواحد القهار، وهو الذي يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك» قال: فألقى البطاقة في النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة وقطع الله السنة عن أهل مصر إلى اليوم. اهـ.

أسطول معاوية في البحر

هذا الشاعر المسلم محمود غنيم، يكتب قصيدة عن مغامرات المسلمين البحرية في زمن معاوية ـ رضي الله عنه ـ، وقد قدَّم لها بقوله: وقد بلغ أسطول معاوية زهاء ١٧٠٠ سفينة كاملة العدد والعدة، وقد أخضع البحر الأبيض ووصل إلى أسوار القسطنطينية فحاصرها حيناً من الزمان.

لمن السفينُ يَلُحنَ كالأعلامِ ... فوق العُباب نواشرَ الأعلامِ
يمخُرْنَ باسم الله موجَ خُضارةٍ ... واسم الهدى ومبادىء الإسلامِ
يهتفن بالتكبير لحناً شاجياً ... فتُجيبُ أمواجُ الخضَمِّ الطامي
ويثبْن آونةً أسودَ عرينةٍ ... ويطرن آونةً حمامَ سلام
يمطرن بالجُزر الدماء. وربما ... كان الدم الموَّارُ صوب غمام
بعضُ الدَّم الموارِ ليس بمأثمٍ ... لكنه طُهرٌ من الآثام
هذي سفينُ الله سارت عَيْلماً ... متراميا في عيلم مُتَرام
لم تدفع الريحُ الهُبوبُ قلاعها ... بل أقلعت بالوحي والإلهام
وحرارة الإيمان وهي حرارةٌ ... مازادها الآذيُّ غيرَ ضِرام
إن تَسْرِ فالجُزرُ الحرام مباحةٌ ... أو تُرسِ فالشُطآنُ في استسلام
أزجى معاويةُ السفينَ تسيرُ أو ... ترسو بكل غَضَنْفرٍ ضِرغام
فكأن بحرَ الروم أصبح مُنبِتاً ... بعد الفلا للغاب والآجام
بدم الشهادة خضبوه فضاعَ من ... أرجائه أرَجُ العباب الدامي
جمح العُبابُ فأسلسوه كأنما ... قبضتْ عليه أكفُّهم بزمام

جالت سنابك خيلهم في لُجَّةٍ ... جَولانَها في مهمَهٍ وَرِجام
ولهم نفوس صافياتٌ صفوَ ما ... بقراره من لؤلؤٍ ونُؤَام
لله بحرُ الروم وهو بُحَيرَةٌ ... عربيةُ اللَّهوات والأرحام
ومعاقل اليونان وهي محاربٌ ... مكتظَّة بالصُّوَّم القُوَّام
لله «رودِس» إذ تُصيخُ «وقبرصُ» ... لِصَدَى الأذان مرتَّل الأنغام
خاض المياه كأنما هو حُوتُها ... من كان يطوي البيد بالأقدام
ورعى البحارَ ومن يقيمُ بهن من ... أمَم: رعاةُ النوق والأغنام
حكم البحارَ فما طغا طُغيانَها ... نفرٌ يُجيدُ العدلَ في الأحكام
حسروا ظلال الروم عن أمواجها ... فتحررت من ربقة الأعجام
نفَذُوا إلى أسوار «قُسطنطين» في ... عزم كحدِّ السيف غير كهام
ورموا معاقله وإن لم تستجب ... لسهامهم. سَلمت يمين الرامى
أطُمٌ عزَزْن على الحنيفة حقبةً ... ثم استجبن على مدى الأيام

مسافر في البحر

يقول إيليا أبوماضي:

ولقد ركبتُ البحرَ يزأر هائجًا ... كالليث فارق شبله بل أحْنَقا
والنفس جازعةٌ ولست ألومها ... فالبحر أعظم ما يُخاف ويُتَّقَىٰ
فلقدْ شهدتُ به حكيمًا عاقلاً ... ولقد رأيتُ بهِ جَهولاً أخْرَقا
مسْتَوفزٌ ما شاءَ أنْ يلهُو بِنَا ... مُترفِّقٌ ما شاءَ أنْ يترفَّقا
تتنازَعُ الأمواجُ فيه بعضُها ... بعضاً عَلَى جَهْل تُنازِعُنَا البَقا
بينَا يَراها الطّرفُ سُوراً قائماً ... فإذا بها حالتْ فصارتْ خَندَقاً
والفُلكُ جاريةٌ تَشُقُّ عُبَابَهُ ... شَقَّاً، كما تَفْري رداءً أخْلَقَا
تعلُو فنحسبُها تَؤُمُّ بِنا السَّما ... ونَظنُّ أنَّا راكبونَ مُحَلَّقا
حتَّى إذا هبطتْ بنا في لُجَّةٍ ... أيقنْتُ أنَّ الموتَ فينا أحْدَقا
والأُفقُ قد غطَّى الضبابُ أديمَهُ ... فكأنَّما غَشيَ المدادَ المُهْرَقا
لاالشَّمْسُ تسطعُ في الصَّبَاح ولانَرى ... إمَّا استطالَ اللَّيلُ؛ بَدْرًا مُشرِقًا
عشرونَ يومًا أو تزيدُ قَضيتُها ... كيفَ التفَتُّ رأيتُ ماءً مُغدقا

حافظ إبراهيم يسافر في البحر

يقول حافظ إبراهيم في رحلته إلى إيطاليا:

عاصِفٌ يَرتَمي وبَحرٌ يُغيرُ ... أنـا بـالله منهُمـا مُستَجيـرُ
وكأنَّ الأمواجَ، وهي تَوالى ... مُحنَقاتٍ، أشجانُ نَفسٍ تَثُور
أزبَدَتْ، ثمَّ جَرجَرَتْ، ثم ثارَتْ ... ثمّ فارَتْ كما تَفُورُ القُدُورُ
ثمَّ أوفَتْ مِثلَ الجبالِ على الفُلْـ ... ـكِ وللفُلكِ عَزمةٌ لا تَخُورُ
تَتَرامى بجُؤجُؤٍ لا يَبالي ... أمِياهٌ تَحوطُه أم صُخُورُ؟
أزعَجَ البَحرُ جانِبَيها مِنَ الشَّـ ... ـدِّ فجَنبٌ يَعلُو وجَنبٌ يَغُورُ
وهو آناً يَنحَطُّ من عُلْوِ كالسَّيْـ ... ـلِ وآناً يَحُوطُها منه سُورُ
وهي تَزوَرُّ كالجَوادِ إذا ما ... ساقَهُ للطِّعانِ نَدبٌ جَسُورُ
وعليها نُفُوسُنا خائِراتٌ ... جازِعاتٌ كادَتْ شَعاعاً تَطيرُ
في ثَنايا الأمواجِ والزَّبدِ المَنْـ ... ـدُوفِ لاحَتْ أكفانُنا والقُبُورُ
مرَّ يومٌ وبعضُ يومٍ علينا ... والمَنايا إلى النُّفوسِ تُشيرُ
ثمَّ طافَتْ عِنايَةُ اللهِ بالفُلْـ ... ـكِ فزالَتْ عمَّن تُقِلُّ الشُّرورُ
ملَكَتْ دَفَّةَ النَّجاةِ يَدُ اللّـ ... ـهِ فسُبحانَ مَن إليه المَصيرُ
أمَرَ البَحرَ فاستَكانَ وأمسى ... منه ذاكَ العُبابُ وهو حَصيرُ
أيّها البحرُ لا يَغُرَّنكَ حَولٌ ... واتِّساعٌ وأنتَ خَلقٌ كبيرُ
إنّما أنتَ ذَرَّةٌ قد حَوَتها ... ذَرّةٌ في فَضاءِ رَبِّي تَدُورُ
إنَّما أنتَ قَطرَةٌ في إناءٍ ... ليسَ يَدري مَداهُ إلاَّ القَديرُ

يونس في البحر

حادثةٌ جسيمة، وقصة عظيمة؛ لأحد المسافرين النبلاء، والهداة الأتقياء، لنبيٍّ من الأنبياء. كفى بالبحر رعباً، وبأهواله خوفاً، وبأمواجه فزعاً، فما بالكم إذا كان مع الهول أهوال، ومع الفزع أعوان، لقد اجتمعت ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت عليه.

ذلكم هو ما حدث لنبي الله يونس بن متَّى ـ عليه السلام ـ «ذي النون» يعني صاحب الحوت، فاستمع معي إلى أحدث بيان، وأصدق تبيان، وهو يحدثنا الخبر، ويقص علينا الأثر، لعل لنا معتبراً:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

[الصافات: ١٣٩ـ١٤٨].

ملخَّص القصة: أن الله تعالى بعث يونس عليه السلام إلى أهل «نينوى» وهي قرية من أرض الموصل قريبة من نهر دجلة، فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا وتمردواعلى دعوته، وتمادوا في كفرهم، فخرج من بينهم مغاضباً لهم، وضاق صدراً بتكذيبهم، فأنذرهم بعذاب قريب، فلما تحقّقوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، ثم تضرعوا إلى الله تعالى، وجأروا إليه فرفع الله عنهم العذاب.

وأما يونس ـ عليه السلام ـ فقد قاده الغضب إلى شاطىء البحر حيث ركب سفينةً مشحونة مملوءة، وفي وسط اللجّة ناوأتها الرياح والأمواج، ولجت بهم فخافوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجلٍ يُلقونه من بينهم يتخفّفون منه لينجو البقية، فوقعت القرعة على يونس، وهذا معنى (فساهم) فأبوا أن يلقوه لأنه معروف عندهم بالصلاح، فأعادوا القرعة فوقعت عليه ثم أعادوها فوقعت عليه، فقام وألقى بنفسه في البحر، فالتقمه الحوت وهو (مليم) أي مستحق للوم لأنه تعجَّل وترك قومه مغاضباً قبل أن يأذن الله له، وقد أوحى الله تعالى إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطنك تكون له سجناً، وعندما أحس يونس بالضيق في بطن الحوت سبح الله واستغفره وذكر أنه كان من الظالمين، فسمع الله دعاءه واستجاب له فلفظه الحوت ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١]

وقد خرج من بطن الحوت سقيماً عارياً على الشاطىء، فأنبت الله عليه اليقطين، وهو القرع يظلّله بورقه العريض، ومنع عنه الذباب الذي يقال إنه لا يقرب هذه الشجرة، وذلك من تدبير الله تعالى ولطفه. فلما استردّ عافيته ردَّه الله إلى قومه الذين تركهم مغاضباً فآمنوا واستغفروا، وطلبوا العفو من الله فسمع لهم وعفا عنهم ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾﴾ وقد كانوا مائة ألفٍ أو يزيدون. أي: بل يزيدون.

قال ابن مسعود: إن الحوت ذهب بيونس في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

وقيل: إن يونس قام فصلى في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «**يارب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس**».

وقد روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن يونس حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، فقال: «**اللهم لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**»، أقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يارب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة. فقال الله تعالى: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يارب ومن هو؟ قال عز وجل: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لايزال يُرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة، قالوا: يارب أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه بالعراء.

يقول رسول الله ﷺ: «**دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت، لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ولم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلاَّ استجاب الله له**» [صحيح الجامع].

بعض الدروس المستفادة من قصة يونس:

١ـ وجوب الصبر على الدعوة إلى الله تعالى والتحمل في سبيلها وعدم استعجال النتائج، وعدم اليأس من صلاح الناس.

٢ـ ينبغي أن يكون الداعية منشرح الصدر واسع الخاطر حتى يستطيع أن

يقوم بمهمته.

٣ـ لطف الله تعالى بعباده المخلصين وحفظه لهم واستجابته لهم إذا تابوا إليه وأنابوا.

٤ـ إن كل ما في هذا الكون هو مسخر لله تعالى ولا يعصي له أمراً.

٥ـ إن الداعية قد يصاب بالمصائب وتلحق به النكبات ليكون في ذلك تربية له وصقلاً لفؤاده، وتطهيراً لنفسه.

٦ـ إن العبد المؤمن الذي عرف الله تعالى في الرخاء يعرفه الله في الشدة ويلهمه رشده ويدله على الفلاح والنجاح.

٧ـ إن الداعية الصادق يشق عليه أن يكذبه الناس ويتهموه ولكن ذلك جزء من تكاليف الرسالة وتبعات الدعوة فعليه أن يصبر له.

٨ـ إن الداعية الصادق المخلص المعروف بصلاحه واستقامته وحُسْن نيته يفرض احترامه وحبه على الناس حتى ولو كانوا من أعداء منهجه والمعاندين لرسالته. ولذلك رأينا أهل السفينة شق عليهم أن يرموا يونس في البحر وأعادوا الاقتراع مراراً لكي ينجو لمعرفتهم باستقامته وصلاحه حتى ولو لم يكونوا مؤمنين برسالته.

٩ـ عدم القنوط من رحمة الله أو اليأس من روحه، فإن الأمور إذا ادلهمَّت، والحياة إذا تأزَّمت، والأبواب إذا أُغلقت، جاء من الله الفرج، وحدث النصر، ونُفِّس الكرب.

١٠ـ وجوب الاعتصام بالله، والتوجه إليه، والانطراح بين يديه.

١١ـ إن أفضل ما يتقرّب به الإنسان إلى ربه وأجمل ما يستدرّ به رحمته وعفوه هو إشراب القلب معنى الوحدانية، وإعمار النفس بحقيقة

الألوهية «**سبحانك لا إله إلاَّ أنت**».

١٢ـ اتهام النفس، وإعلان الندم، والاعتراف بالذنب، سبب لنيل التوبة، وكسب العفو، وحصول الفرج «**إني كنت من الظالمين**».

أنا والبحر

في إحدى اللَّيالي الحالمة كنت على شاطيء الخليج في أحد أسفاري، وكان ذٰلك في فندق الدوحة شيراتون، فسرحت بروحي وخيالي ووجداني مع البحر فكانت هذه القصيدة:

عزفت على أمواجه عذب أعوادي ... وأرسلت صوت الحب كالبلبل الشادي
تفجرت الأشواق في قلب شاعر ... أتى لضفاف البحر من غير ميعاد
تراقصت الأمواج حتى كأنها ... تغني على أنغام حبي وإنشادي
عجبتُ له لا زال بالفضل زاخراً ... يشابه في مذخوره لغة الضاد
تـأملتـه فـي بعـده واتسـاعـه ... كـأنَّ لـه آمـال روحـي وأبعـادي
إذا ما أتاه المرء بالهم مثقلاً ... يـرى فيـه تنفيسًـا لكـرب وأنكـاد
على ضفتيه يسكن الحب والهوى ... وفيح لهيب العشق يمنى بإخماد
إذا بثه الأحباب ما في نفوسهم ... رأوا فيـه تـرويحًـا لآهـات أكبـاد
يشاطره من يشتكي هجر خلِّه ... همـومًـا فيلقـى منـه أنسـام إبـراد
هواء عليل يمتع النفس كلما ... سرى طيبه أزكى من المسك والكادي
تلذّ عليه ساعة الوصل والمنى ... ويحدو إلى معنى الهوى والرضا حاد
إذا ما خلا قلبٌ محب بحبه ... على البحر ينسى كل هم وإجهاد
ويحلو لذي الإيمان تسبيح ربه ... على شاطئ فيه انسجام لمرتاد
يرى من هدى الباري وآثار فضله ... دلائـل للتـوحيـد مـن غيـر أنـداد
فكم رُتِّلتْ في هدأة اللَّيل آية ... علـى ضفتيـه مـن تـرانيـم عبـاد
وكم نظرة للبحر نفاذة الرؤى ... تسل سيوف الفكر من بعد إغماد

إذا داعبته الريح يهدي نسائمًا ... من اللطف تروي غلة المدنف الصادي
وإن زمجرت يومًا تثير انفعاله ... وتَنْقَضُّ أمواج لها صوت إرعاد
إذا ثار فهو الخوف والموت والردى ... وتعشقه الأرواح في ثوبه الهادي
إذا ما ارتدى ثوب الرضا كان سلوة ... لأضيافه من كل جمع وآحاد
وتُجنى أفانين المنى في رحابه ... وتُقضى اللَّيالي في سرور وأعياد
فإن ماج لم يأبه لجار وصاحب ... فكم من دمار واقتحام وإسهاد
قويٌّ صبور صامدٌ كم توافدت ... عليه بالبرايا ثم تمنى بإحصاد
ولا زالت الأمواج منذ ابتدائه ... تُوالي خطاها في هبوط وإسناد
وكم أوجد الباري به من عوالم ... تحدث عن إعجاز خلق وإيجاد
إذا كانت الأسماك تأبى فنونها ... وألوانها أن تنطوي تحت أعداد
فكيف بآلاف الأعاجيب غيرها ... ومن رائح في لجَّة البحر أو غاد
إذا غازلته الشمس عند غروبها ... تذوب على أحضانه رغم حساد
وترسم في شطآنه قصة الهوى ... بلون لنار الحب كالجمر وقاد
تخيل للأنظار وصلاً وبينها ... وبين احتضان البحر آماد آماد
وفيها من الآيات ما يذهل النهى ... وذٰلك ما يرويه أرباب أرصاد
وكم آية لله تروي بنفسها ... شواهد للإبداع من غير إسناد
إذا ما ادلهم الخوف يومًا براكب ... عليه وهاج الموج في شر إزباد
تعلقت الأرواح بالله ترتجي ... نجاة وتنسى حينها كل مُرْتاد
ومن فضله إسعاف من يحتمي به ... ومن يصدق النجوى على غير أحياد
يُنَجِّي ذوي الإشراك إن أذعنوا له ... فكيف بعبدٍ مخلص الدين حمَّاد
ألا أيهذا البحر هلا رويت لي ... أحاديث من أخبار هودٍ ومن عاد
وعمن مضى من قوم نوح وتُبَّع ... وموسى وذي مكر شديد وأوتاد

وعن آل ساسان الذين تألقوا بأمجادهم دهرًا وعن آل شدَّاد
وعمن قضوا ليلاً من الأنس حالمًا وكم شيَّدوا من دار لهو ومن ناد
وعن غادة تهدي على الشط حسنها تباهي بقدٍ فارع الطول ميَّاد
وعن باطش للهول والموج ماخرٍ فكانت له الأمواج في شرٍّ مرصاد
وعن ذي شباك يطلب الصيد فانبرى له القرش لم يرفق بأهل وأولاد
وعن مؤمن خاض المحيطات صابرًا يمزق بالإيمان أستار إلحاد
وعن أمم من كل بر وفاجر ولون وجنس أو عبيد وأسياد
قرون مع الأيام تفنى وأنت في صمودك لم تحفل بموت وميلاد
فثارت بوجهي موجة هز صوتها كياني ويحيي بردها كل إهماد
ألم تدر أنَّ الخلد لله وحده وأنَّ جميع الخلق ليسوا لإخلاد
ألا أيهذا البحر يا خير آية على روعة الإبداع للخالق الهادي
لنا ذكريات فيك تزهو بطيفها وتبعث في أرواحنا عطر آباد
حملت كليم الله طفلاً ملففًا بأمر من الباري على متن أعواد
مضيت به للمارد الكافر الذي طغى وانبرى ما بين قتل وإفساد
وما زلت في حب لموسى ونصرة وكنت لجند الحق تسعى بإمداد
هوى بالعصا موسى فحييت صوته بخير دروب آمنات كأطواد
فلما أتى فرعون يزهو بجيشه تدافعت الأمواج فتكًا بأوغاد
وأبقيت للذكرى مدى الدهر آية فناءٌ لأرواح ومكث لأجساد
ويونس لما ساهم الركب سهمه رماه بلج منك من غير إنجاد
سعى الحوت مأمورًا به لالتقامه فأمسى بجوف الحوت في هول إرعاد
فقام يناجي ربه في ظلامه بأزكى دعاء في خضوع وترداد
يناجي الذي ما خاب من يحتمي به غياث لملهوف ملاذ لقصَّاد

أتى أمره للحوت أن ألق يونسًا ... فما لك فيه أيها الحوت من زاد
فألقى به مضنًى إلى ظل دوحة ... وبادر يقطينٌ لستر وإضماد
ويمضي شريط الذكريات الذي لنا ... مع البحر من مجدٍ تليد وإسعاد
أولئك جند الله ساروا بخيلهم ... على البحر حتى هابهم كل صداد
وجن جنون الفرس والروم إذا رأوا ... خيولاً على الأمواج تمضي بآساد
هوى عرش كسرى وانقضى ملك قيصر ... ونادى منادي الحق في الحضر والبادي
طويناه نروي قصة المجد والتقى ... فكم من جموع عابرات وأفراد
وكم راية في الصين والهند تعتلي ... تحدث عن أحفاد سعد ومقداد
دعاة إلى التوحيد والعلم والرضا ... لجند رسول الله من خير أحفاد
أنرنا ظلام الكون بالعلم والهدى ... وحسن النهى في ظل علم وإرشاد
سرى عطرنا في الأرض واهتزَّت الربا ... على نغمات الحق من خير ورَّاد
سلوا كل بحر عن علانا ويابس ... سلوا السهل والصحراء والتل والوادي
سلوا المغرب الأقصى وأزهار فارس ... وأنهار أوربا وآثار بغداد
مغاوير نأبى الذل والضيم والخنا ... ويُنْبَذُ من ديواننا كلُّ شراد
منائرنا في كل صقع وصوتنا ... تردده الأرجاء رغماً لأضداد
مساجدنا تسمو بهدي وحكمة ... وفي كل يوم فيض حب ورواد
أيا أمة الإسلام سيرى على الهدى ... تنالي من الديان آفاق إرفاد
ويا بحر قد أحسنت بي إذ أثرت لي ... حسان المعاني من طريف وإتلاد
وغنيت لي صوتًا يلذ استماعه ... وزودتني من خير فضل وأزواد
ذكرت بك الباري وآمال أمتي ... وآهات أشواقي وتاريخ أجدادي